

داء السل

للدكتور عمر شوقي

مدير قسم الصدر ووسيل المجموعة الصحية بوزارة

أُسَية ! طالما جالت بخاطرني . وطالما تمنيت على الله أن يحققها . فاني بعد عشرين عاما مارست فيها هذه المهنة السامية . وبعد أن عرّكت الدهر انبائها وعركتني . وبعد أن رأيت كثيرا وسمعت كثيرا . وأتاحت لي مناسبات الأيام وظروفها . أن أزور الفقير في كسر داره . وألمس بيدي عسره واقتفاره . والفني في قصره مخنوقا بنفسه ونفساره وفي جده عزه ويساره ! . رأيت ثم رأيت . رأيت صباحا وضاحا . ومساء قاتما . وعلاوا شاحقا وهبوطا ساحقا .

بعد هذا كله تمتيت على الله لو أني لم أنشأ طبييا . فبقدر ما استطعت واتسع له جهدي أن أؤديه في هذه المهمة من تخفيف آلام المرضى ومواساتهم وهم يقاسون الأمرين : الداء والفاقة بقدر ما حزت في قلبي ونالت من نفسي هذه الآلام الانسانية التي سمعتها أذني ورأيتها عيني ، وتلك الفوارق الاجتماعية التي علت بالانسان ، والتي دبّطت بالانسان ، فجعلت المسافة بين الاثنين مترامية ، والبون شاسعا . حتى لم يعد القوى يشعر بالضعيف ولا الموسر بالملقى ! وماذا بعد هذا ؟

إني لأدعو القراء الى الاشتراك معي في هذه المشوكة . فيجملون عني بعض هذه الأثقال التي لا يزال كاهلي ينوء بأعبائها ، فأمرد عليهم ولو قليلا من كثير من ويلات هذا الداء ، وشدة وطائته على الفقراء ، ومن طغيان الانسان بأخيه الانسان ! !

كان صباحا - فكتبت تذكرة بصرف قليل من دواء "البلاذونا" لأحد المسلولين يأخذه من صيدلية العيادة الخارجية بالمجموعة الصحية في بولاق ، وكان شابا امتص الداء ضارته وكنت أرجو أن يتماوله هذا الدواء يقف النزيف الدموي عنده . والله ينجز من الموت . ولكنني بعد زمن دون الساعة . رأيته وقد فارق الحياة على باب "المجموعة" إذ تدفق النزيف من فيه . وعلمت من أنصح الأقربين صلة به أنه باع دواء "البلاذونا" مقابل قروش ثلاثة على نية أن يشتري بها خبزا لأولاده . وهو عاطل مملق بسبب المرض . لا يملك قوت يومه ! ! فعجل به الموت ضحية هذه الرحمة الأبوية . وأنها لذريعة في النفس . لا محيص عن إطاعة نداءها ...

وكان مساء — سمعت فيه ورأيت شاباً من أبناء السراة . وشياطين المال . يخاطب تليفونيا تلك التي سبته قلبه ونهاه . فيقول لها — ” في صندوق الشيكولاته الذي أهديتك أمس إياه . ثلاث صفوف منها . أعتقد أن أولها هو أحسنها “ ! ! ...

فأجابته ” ليس في الصندوق إلا صفان “ ! فقال ” أبخني فيه جيداً “ ! ! ...
فلما أطاعته إذا بها تجدد الصف الأول . ورقة جديدة من فئة المائة جنيه ! ! ! ...
كان ينبغي أن يظفر منها ولو بجذبه واحد ذلك المريض الذي باع دواء ” البلادون “ ليعتاع خبزاً لأولاده ...

وكان صباحاً — رأيت فيه أسرة قضت الأم نحبها متأثرة بداء السل بعد أن انتقلت منها العدوى إلى الأب ثم إلى أبناء ثلاثة يتقنون جميعهم حجرة مظلمة في بدويم رطب لم تبلغه أشعة الشمس . ولم يسلك إليه ضوء القمر . وقد لا يترشح قيد أنملة الهواء الفاسد بين جدرانه . فإذا يصنع الأبناء التمغار وهذا عائلتهم أيضاً صريع الداء . وهو يقترب رويداً من هوة القناء ؟ ؟ ...

إنهم لم يفعلوا شيئاً أكثر مما أرغمتهم عليه ظروفهم العاتية الفاهرة . وهو الصبر والتعقب ولكن ماذا كانوا ينتظرون ؟ ؟

لقد كانوا يترقبون رحمة الكرماء من الجيران بهم . إذ يفتحونهم بكسرات الخبز تقيم أودهم . فهل يمثل هذه الكسرات فقط يمكن أولئك المنكوبون النساء من مكافحة داء القاعدة الأساسية في مقاومته هي الغذاء ؟ وإلا فمن أين لهم وسائل العيش الهنيء . وموائد الطعام الشهى ؟

وكان مساء — زرت فيه صبياً مدلاً . من أبناء آلهة الذهب . وكان يشكو توعكا طفيفاً ، ولكن والديه — والمال بين أيديهم آكام — قد هالتهم شكاية فلذة كبدهم . فاستدعيا لمعالجته طبيباً وثانياً وثالثاً . فالفيت تحت وسادة سريره النخم قدرا كبيرا من الجنيئات الذهبية . وحين لاحت عوامل الدهشة على وجهي . بادرنى والده قائلاً : — ” لا تعجب فإننا نغريه على تناول الدواء يجنيه من الذهب عن كل ملعقة منه ! ! ... “

فهل لو سمع هذا الوالد الذي أغرق ابنه في بحر من الذهب بهؤلاء الأبناء المرضى الثلاثة — ورابعهم أبوهم — هل كان يجود عليهم بجذبه واحد ؟

وكان صباحا — رأيت فيه صبيا قد نخر السل أضالع صدره . وهو منحني على وعاء القمامة في أحد الشوارع يأكل منه قشر البطيخ . ونفايات الأغذية !!

وكان مساء — لبيت فيه دعوة صديق من جمعوا المال جعلا لها . وقد ألجأ على تناول العشاء على مائدته . مع رهط من رفاقه . فاذا بالمتصف الرئيس الذي يتزعم الأغذية "دندى" لا يقل ثمنه في هذه الأيام عن جنين محشو بعشر أفات من التفاح ثمنا عشرة جنيهات !!

فهل لو رأى صاحب هذه المأدبة ذلك الصبي ، وهو يأكل القمامة ، هل كان يعود مثلي إلى تناول الطعام في قصره ؟

~

وكان صباحا — سمعت فيه ضجة مشادة بين بعض الترحجية ، وبين شاب فتك به السل يحاول الدخول الى المستشفى بعد الموعد بنصف ساعة . وهم يأبون عليه ذلك . وكان تأخره عن الموعد لأنه لم يكن يملك أجرة الترام بخاء من شبرا البلد يسمى . وأى سعى يستطيعه مريض مثله ؟ ؟

وكان مساء — جلس الى فيه قيصر من قياصرة الثراء الباحظ بمندني بأنه اشترى أخيرا من أميركا سيارتين الأولى مكشوفة ليركبها . والثانية مغلقة النواحي لتدفعه . حتى اذا أمطرت السماء . وتغيرت حالات الطقس . انتقل من السيارة المكشوفة الى المغلقة .

فهل تراه يرحى — صاحب السيارتين — أن يدفع ثمن التذكرة في سيارة الاوتو بيس لذلك المريض البائس . الذي جاء من شبرا البلد ماشيا ؟ ؟ . . .

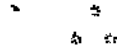
~

وكان صباحا — والثناء يهت لحم الانسان والحيوان . رأيت فيه مساولا لا يستطيع أن يتبع الخطوة بالآخرى . قد انتعلت قدماء الأرض القارصة الزمهرير . الى حد أن لذاتها كانت كاذبات النار . وليس على جسمه إلا كساء واحد كاد أن يكون خيوطا لفرط تهلهله .

وكان مساء — رأيت فيه انسانا — لا واستغفر الله — بل تمثالا من الأعيان . ومن حمدوا وجود غيرهم من الانسان . وهو يصب جام سحطه على الأيام . وينهال بعناته على كل شيء في الدنيا الا شخصه . وما أجدره بها قبلها . فلما استقصيته الأمر علمت منه أنه يود او استطاع ذلك بالترزى . لأنه أفضل أن يبطن كى الباطل بالحرير . وبطنهما بقماش اعتيادي . فهو لهذا يجد صعوبة شديدة في إدخال يديه بالكين . . .

فويل يحود هذا "التثال من الأعيان" على ذلك. العيان بجزء من عشرين من ثمن معطفه ؟
وآخر غيره حمل على رأسه كل عموم الدنيا لأنه رأى شيئا لبذله يرتديه غنى نان . على
حين أنه كان موقنا بأن الفابريكة في إنجلترا لا تخرج إلا قطعة واحدة من نوع واحد انتهى .
بذله ؟ ؟

فماذا يصنع ذلك الذي لا يجد إلا كساء واحدا مهلهلا ، ليقيه ويلات الشتاء ؟ ؟ .



وكان صباحا — حوت فيه مسلولا إلى مصحة حلوان . ولما كانت أسرتها مزدهرة
بالمريض . فإن تناوب الأدوار هو المتبع في دخولها . ولكن هذا المريض لم يدخلها ، فقد
قائه الدور وضاعت منه الفرصة . لأنه لم يمتلك أجرة السفر إلى حلوان .

وكان مساء — حدثني فيه أحد الذين يبعثون المال جزافا عن اليمن وعن الشمال
أن لديه صندوقا من السيجار الفاخر في السيارة وآخر في حجرته الخاصة بالقصر . وثالث
في المكتب . وإن ثمن سيجار واحد من هذا النوع من الكفاية جدا لسفر ذلك المريض
إلى مصحة حلوان ترانته أسرته . ومنزودا بكل ما يحتاج .



وكان صباحا — رأيت فيه طائفة من صرعى السل وجميعهم حفاة الأقدام .
ومساء — علمت فيه أن أحد الأغنياء صنع قالبا من الخشب الفاخر يحمي قدميه
وأرسله إلى مصنع الأحذية في إنجلترا حتى يصنع له إثنا عشر زوجا دفعة واحدة ثمنها
١٢٠ جنيا .

بل وسمعت عن آخر أنه لم يقنع بقصره . ما يجري على جوانبه من ترف ونعيم ولم يقنع
بمكتبه يحتل شقة نفحة في إحدى العمارات الشاهقة . فاستأجر لثنتين من "البرسونيرات"
بأنهما النفيس والخدم والحشم يقضى في كل منهما أوقات فراغه وما أكثرها ! !

أدلا أقول بعد هذا كله ليتي لم أشهد الصباح ولم أشهد المساء ، بل ليتي لم أكن طبيبا
والآن ، أى داء هذا الداء العضال ؟ ؟ إنه السل . آت الرئة أو التدرن الرئوي وإني لأقدر
عدد المصابين به — تبعاً لمشاهداتي — بما لا يقل عن نصف مليون مريض في مصر . عدا
من لم يظهروا لأعين الأطباء في ضروب المستشفيات ومختلف العيادات .

هذا الداء قد يكون قابلا للشفاء في بداية أسره . على أن يكون المريض تحت مباشرة
اختصاصي ولا بد من تبكيده في المعالجة . وإلا . . . عليه وتفاقم المرض .

وميكروب السل موجود مستتر عند كل انسان تقريبا . فاذا ما أصاب الضعف حدثه في يوم ما ثقله الغذاء . ظهرت عليه أعراض الداء . وكثيرا ما يبدأ السمل بدون أن يسبقه ظهور الاعراض . ويسرى بضعة أسابيع في الجسم . وإذا بالمريض يقذف دما من سماء الصحة الصافية والقوة الناضرة !!

وتنتقل العدوى المرض بواسطة ميكروبه "باشيلس كوخ" الى الأشخاص الذين لديهم استعداد له . أو لمن تسوء تغذيتهم دون المستوى الضروري لهم ولأنهم يقيمون في مساكن غير صحية . أو على أثر الإصابة بأحد أمراض البرد . وتنتقل العدوى من بصاق المسالين على الأرض وسعالهم في الهواء . وقد يصعب أن تصيب العدوى ذوى النجاسة المتينة والبنية القوية .

المستهدفون للداء :

والأكثر استهدافا لهذا المرض — بصفة خاصة — هم ذوو الصدور المنبسطة العريضة والأضلاع السافطة الى أسفل وأصحاب الرقاب الطويلة . والعيون الواسعة ذات البياض الناصع الشديد أيضا (العيون الدعجاء) والأحداق المستطيلة والأصابع الطويلة الجميلة وتعرف باسم "أيدي مادونا" والسيدات الجميلات القوام والأجسام من نماذج عادة الكاميليا "رافايلا تايب" .

وكذلك من لم يخلقوا على توافق بين ألوان الشعر كأن يكون شعر الرأس أسود اللون جدا . بينما أن شعر الشارب أحمر اللون جدا . وهؤلاء أشد استعدادا في الاستهداف للداء ، وطبقة الزوبين (البرابرة) جميعهم لديهم استعداد للسلف الفئاك الذي لا يقاوم . ولم يثبت الى اليوم من الناحية العلمية السبب في خطورة هذا الاستعداد . وقد يرجع ذلك الى قلة الغذاء في بلادهم حيث لا توجد لديهم الكفاية من الماشية التي يغتزون بلحمها وبالبنات ومنمنها . وأما الذين منهم في القاهرة فان غالبيتهم ينامون وراء "البوابات" على "دكانك" من الخشب في أماكن غير صحية لا تدخلها الشمس .

ومما يذكر في هذا أن في مدينة "فيينا" لكل بواب شقة خاصة به في العمارة تحتوى على حجرة للنوم وأخرى للطعام وصالون . وكل ساكن من السكان يحمل معه مفتاحا لينفتح ويدخل بنفسه عند وقت عودته . بينما أن هذه الطبقة في مصر غير معنى بها .

وقد تنتقل العدوى بصفة خاصة الى المراهقين الذين ينمو الشعر على ظهروهم . أما في الوراثة فقد تنتقل العدوى من الأم الى الجنين ولكن هذا نادر جدا .

ولكن الأكثر أهمية أن يولد الطفل ضعيفا وبسبب هذا الضعف يتبها لديه الاستعداد
فإذا ما أصيب بالعدوى قبل استكمال العامين من عمره كان مقتضيا عليه . لأن المقاومة
لا تبلغ أشدها عنده قبل هذه السن أما إذا أصيب بالعدوى بعد سن السنتين فقد ينال
الشفاء بالعلاج الجيد والهواء النقي والغذاء الكافي .

أعراضه — لعل الظواهر الواضحة من أعراضه هي ارتفاع درجة الحرارة عند الأصيل
ارتفاعا بسيطاً حوالى درجة ٣٨، ثم غزارة العرق أثناء ساعات الليل وسعال غير شديد
الوضوء قد يفتقرن بالبلغم وفي بعض الأحيان يكون مصحوباً بدم .

العلاج — راحة الجسم والفكر قبل كل شيء ولا بد من الابتعاد الى السرير ما دامت
هناك حرارة . والتريض في الهواء الطلق وتناول الأغذية الكافية بلا افراط مع تغيير أنواع
الطعام . والا تكثر من أكل الفواكه وتناول زيت السمك والرفاد في الهواء الطلق بمراعاة
عدم التعرض لأشعة الشمس القوية .

وينبغي أن يصدق المريض في مبيضة خاصة مائية بالفنيك لقتل الميكروب . وغسيل ثيابه
على حدة . ومن الخير جداً لريض أن ياجأ الى سكنى الصحراء وان لم فالأرياف ويمتنع عن
احتساء الكحوليات والتدخين . وإذا ظهر الدم في البصاق يلتم الراحة في السرير مع شرب
ملهقة شاي . ملائى بالمالح . ولا بد من استشارة أحد الاختصاصيين .

»

وسائل المكافحة — وهى التى يجب أن تتجه اليها كل ضروب الجهود حتى يتسنى القضاء
على هذا الداء . أو تخفيف وطأته على الأقل في بلاد لا يملك نحوون في المائة من أهلها
إلا أجسادهم .

وما هو جدير بالذكر عن الوسائل الفعالة المتبعة في النمسا وغيرها من الممالك الغربية
لمحاربة السل والزهرى هى أن المصاب بأحد الداءين إذا ضبط سائراً في المجتمعات العامة
يلقى البوليس التنبض عليه لإيداعه أحد المستشفيات .

وقد يجزىل إلى القارئ أن هذه الاجراءات عنيفة شديدة من ولاة الأمور في تلك البلاد
ولكنهم يفعلون ذلك مع صرعى هذين الداءين لأن لكل مريض بأحدهما سريراً
في المستشفيات . فلماذا لا يدخلونها ؟

والعل من أُلزم الواجبات على الحكومة المصرية كَمَا تتمكن من مكافحة هذا الداء الويل
أن تستجلب جهاز الأشعة الحديد الذى ظهر أثناء الحرب فى "مينا" وبه يمكن الكشف
على بضعة آلاف مريض فى الساعة الواحدة .

هذا مع وجوب تدريب مفتشى الصحة فى مختلف أنحاء البلاد على عمليّة الاسترواح
الصدرى ليتكفروا فى اتّقيام بها للمرضى فى مراكز أعمالهم .

وأن يتوافر عدد جهاّات الأشعة التالى بحيث تصبح كافية لجميع المراكز فى مديريات
الدولة .

والإكثار من إنشاء المستعمرات للتأقّهين . وهناك نواح من البلاد أكثر صلاحية من
سواها لهذا الغرض بلوذة هواها مثل القصّاصين وسواحل البحر الأحمر .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى يجب تلقين الشعب من طلبه وصناع وفلاحين
وموظفين بأن لا يهضموا على الأرض وأن لا يسعلوا فى الهواء ، مع العمل المتواصل على
تحسين حال الموظف والفلاح والعامل من الناحية المادية .

وتدبير المال اللازم للاسراع فى تشييد المستشفيات لمرعى هذا الداء وقد يكون ذلك
بفرض ضريبة خاصة غير باهظة على الأغنياء لمدة سنة أو سنتين .

وهناك واجب أشد أهمية وأجدر بالأداء ، وهو واجب السراة والأغنياء بعد الذى
يقوم بتنفيذه ولاية الأمور .

وأرباب المال فى كل أمة هم مصدر النجدة فيها بما تسخوبه أكفهم لايعوزين
والزمنى والمرضى . تأدية للواجب عليهم نحو البلاد التى عاشوا على أرضها وتحت سمائها
فى باهنية من العيش وسمة من الحياة . ونحو مواطنهم الذين حرموا طبيبات الدنيا من صحة
ورفاهية .

والعل أجدر ناحية يجب أن يتجه إليها سراة مصر بهياتهم وما يتزاون عنه من ثرواتهم هى
"جمعية تحسين الصحة النسائية" وحسبها جدارة ما بذلت وتبدل من جهود للعناية بفحايها
داء السل ورعاية ذوى قرأهم من ذريتهم وأفراد عشيرتهم

وما أحسب الأغنياء بحاجة الى من يذكرهم بقوله تعالى "أن الله لا يضيع أجر من أحسن
عملا" .

وبقول الشاعر

من يغفل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب اعرف بين الله والناس

دكتور "عمر شوقي"